الخفة والاستثقال عند الأقدمين

المدرس المساعد : سارة عبد الستار علي
sarah951@uomustansiriyah.edu.iq

لقد انطوت أغلب آراء العلماء من القدماء على أن الخفة والاستثقال خصيصة متأتية من الجانب الصوتي في غالب معطياتها أي- أنها تعزى إلى أسباب ومؤثرات صوتية بعضها مع البعض ، وقد تجنح لمؤثرات لغوية أخرى ، إذ يشترك معها الجانب الصرفي والنحوي فهما ليسا بمعزل عنه ، بكونهم مرتكز أساس تقوم عليه الدراسات اللغوية . فضلا عن ذلك تعتبر ظاهرتي الخفة والاستثقال في الكلام العربي من متعلقات المشافهه والاستعمال ، وكيفية تأديتهما وهما داخل سياقهما اللغوي هكذا تعرض للكشف سبر أغوار هذه الظواهر العلماء سواء كانوا من الرعيل الأول (القدماء) أو المحدثين ممن خاضوا غمار البحث للكشف عن كوامن تجليات ما صرح به العلماء أتقدم بهذا التقرير للتفصيل بما أورده العلماء عما وراء الخفة والاستثقال بدءًا من شيخ النحاة (سيبويه) ، ومروراً بمن تبعه من القدماء والمحدثين ، الفكرة دون الاصطلاح عند الخليل بكونه المشرع للعلوم اللغوية ، أشار الخليل إلى ذلك بقوله : إن الصوت الذي يعمل على إخراجه عضوان أثقل من الصوت الذي يعمل على إخراجه صوت واحد ، مشيراً بذلك إلى أن الضمة تحتاج في إخراجها إلى تحريك الشفتين ، أما الفتحة فتحتاج إلى تحريك الفم ، ومن ثم كانت الفتحة عنده أخف من الضمة ، كما لاحظ ثقل نطق الأصوات الساكنة كالباء والتاء والثاء الأمر الذي أضطر به إلى جلب ألف وصل ، أما سيبويه فإن المتتبع في كتابه يجد دلالة الاصطلاح واضحة جلية لديه يستعملها في كثير من الأحايين في مواضع مختلفة معبراً عنها بعبارات منها :(الاستثقال –التثقيل –التخفيف والخفة –يثقل ويستثقلون ويخففون –واستثقلوا و أثقل وأخف –والأثقل والأخف) ومنه ماذكره في عن أستاذه الخليل في(الكتاب) : (فزعم الخليل: أن إجناح الألف أخفُّ عليهم، يعني: الإمالة، ليكون العمل من وجهٍ واحد، فكرهوا ترك الخفة وعلموا أنهَّم إن كسروا الراء وصلوا إلى ذلك، وأنهَّم إن رفعوا لم يصلوا) وقد أفاد ابن جني بهذا الموضوعات عندما تحدث عن خفة الفعل الثلاثي دون الرباعي والخماسي وخفة الفتحة دون الضمة والكسرة وذكر أن العرب تميل لما هو خفيف على ألسنتهم وتأبه ما يستثقله وفي صدد هذا ذكر ابن سيدة في مخصصه : وفي طلب الخِفَّة فَإِنَّهُ إِذا كَانَ قلب الْوَاو إِلَى الْيَاء فِي ميقَات أخَفَّ من الأَصْل الَّذِي هُوَ مِوْقات فَهُوَ أولى مِنْهُ فالخِفّة تطالب بِهِ وَأما الْكَثْرَة فَإِن مَا كثُر فِي الْكَلَام أحقُّ بالتّخفيف وَلها كَثْرَة لَيست لغَيْرهَا من الْحُرُوف لِأَنَّهُ لَا تَخْلُو كلمة مِنْهُم أَو من بَعضهنَّ إِذْ لَو أشبَعْتَ الضّمةَ لَصَارَتْ واواً وَلَو أشبعت الفتحة لَصَارَتْ ألفا وَلَو أشبعت الكسرة لَصَارَتْ يَاء فالكثرة تطلب التّخفيف على مَا بَينا وَأما الْمُنَاسبَة فتطْلُب جوازَ قلب بعض إِلَى بعض من غير إخلال بِالْكَلِمَةِ من قِبَل أَن المُقارِب للحرف يقوم مقَام نفس الْحَرْف ، ثم جاء ابن يعيش في شرح المفصل موضحا مدار الخفة والثقل بين الأسماء والأفعال بيد أنه تناول بطريقة التعليل من الناحية التركيبية والصرفية والصوتية : والاسم على ضربَيْن: نكرةٌ، ومعرفةٌ. والنكرةُ هي الأصل، والأخفُّ عليهم، والأمكنُ عندهم. والمعرفةُ فرعٌ. فلمّا كانت النكرةُ أخفّ عليهم، ألحقوها التنوينَ دليلًا على الخفّة. ولذلك لم يلحق الأفعالَ لثِقَلها ولذلك حُذف التنوين ممّا لا ينصرف لثقله، حَمْلاً على الفعل. و إنمّا قلنا: إن الأفعال أثقلُ من الأسماء لوجهَين:

الوجة الاول : أنّ الاسم أكثرُ من الفعل؛ من حيثُ أنّ كلّ فعلٍ لا بدّ له من فاعلٍ اسم يكون معه، وقد يستغني الاسمُ عن الفعل. وإذا ثبت أنّه أكثرُ في الكلام، كان أكثر استعمالًا؛ وإذا كثُر استعماله، خَفَّ على الألسِنة لكثرة تداوُله. ألا ترى أن العَجَميّ إذا تعاطَى كلامَ العرب، ثقُل على لسانه لقِلّة استعماله له؛ وكذلك العربي إذا تعاطى كلامَ العجم، كان ثقيلًا عليه لقلّة استعماله له .

الوجه الثاني: أن الفعل يقتضي فاعلًا ومفعولًا، فصار كالمركَّب منهما، إذ لا يستغني عنهما. والاسم لا يقتضي شيئًا من ذلك، إذ هو سِمَةٌ على المسمّى لا غيرُ، فهو مفردٌ، والمفردُ أخفُّ من المركّب ، فقد ثبت بهذا البيان أن الأفعال أثقل من الأسماء. وهي مع ثقلها فروعٌ في الأسماء .

==========